٩٩/٤/٢٨
مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٢١٠
التاريخ ١٥/ ٢/ ٢٠١٤

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

الفكر العربي

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الثاني والثلاثون نيسان (ابريل) - حزيران (يونيو) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر | د. إحسان عباس | د. شكري فيصل
الشيخ عبد الله العلايلي | د. عمر التومي الشيباني | د. عبد السلام المسدي | رئيس التحرير
د. مصطفى التير | د. معن زيادة | د. إبراهيم رفيدة | رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

معهد الإنماء العربي
بيروت - لبنان

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤
الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

ص.ب المجلة: ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد: ١٤/٥٣٠٠

الثمن: ٢ ل.ل. أو ما يعادلها

أوروبا والاسلام (★)

د. هشام جعيط
مراجعة محمد حيدر

مع مدّ التيار الإسلامي المتوثب والمندفع من جديد في واقعنا الراهن، استيقظت في أقطار العالم المخاوف من عودة الاسلام إلى انتظام عصري مماثل لانتظام عصره الذهبي؛ إذ جعل من القبائل المتناحرة والمتناثرة فوق رمال الصحراء، أمة عظيمة موحدة، ترامت فتوحاتها شرقاً وغرباً، وتغلغلت في مواطن الحضارات الخارجة على الاسلام. وهنا تفيء إلى الذاكرة تساؤلات عن العلاقة التاريخية، بين أوروبا المسيحية والاسلام، واستقراء مستقبل هذه العلاقة والمستجدات الناتجة عنها، نظراً للصراع الأساسي الذي حكم تلك العلاقة. فكيف كانت نظرة أوروبا للاسلام، بمستشرقيها، ومثقفيها؟، وما كان مدى علمهم أو جهلهم بالاسلام؟

على كافة هذه التساؤلات، نجد الأجوبة والنظرات الاجتهادية في كتاب هشام جعيّط «أوروبا والاسلام»، وهو في فصول عشرة ذات منهج تحليلي واستقرائي.

في المقدمة، يتساءل المؤلف (جعيّط): كيف يمكن تبرير دراسة تقارن بين مفهومين: أحدهما، ذو أصل جغرافي بحت (أوروبا)؟ والثاني، ذو أصل ديني بحت (الاسلام)؟

يقول المؤلف: إن هذا أمر ممكن من خلال اعتبار أوروبا كثقافة تاريخية وحضارة كبرى، نجد مثيلها في الاسلام الكبير، جماعة وحضارة؛ أي أوروبا والاسلام. حضارتان تاريخيتان حيّتان، لهما منحى شمولي. تعرضتا لتحولات وانكسارات، لها مركز وأطراف: تلك هي الصفات التي ترسم أوجه الشبه بين المصائر، وتبرز الجهد المبذول في عملية المقارنة. وهنا يرد التساؤل الكبير: ولكن لماذا تعثّر الاسلام، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تنطلق عجلى في ميدان العلم والفكر والتقنية، خاصة وأنه كان في أساس صعودها؟

لقد بقي المسلمون في حالة استلاب حيال نجاح أوروبا ـ الآلة والامبريالية ـ الذي رآه البعض تحررياً وانسانياً. أمّا البزوغ السياسي للعالم الإسلامي بالأمس، فقد أصبح اليوم إقتصادياً، إضافة إلى التطوّر الذي يعتمل بجرأة متزايدة داخل الإسلام، ما بين الوعي التاريخي الثقافي والاكتساب الموضوعي لأدوات الحداثة. وبذلك، يتسنّى للمثقفين ذوي

(★) أوروبا والإسلام، د. هشام جعيّط ـ دار الحقيقة، بيروت، عام ١٩٧٩.

الأصل الاسلامي، أن يتوجهوا نحو الحضارة الغربية لا ليسلبوها سرها، بل ليفهموها من الداخل. وستكون التجربة الأوروبية هي المحرِّض على خلق فتوحات من نوع جديد خارج حدود أوروبا، أو في العالم الثالث بالذات، وستكون الفتوحات في ميدان الذكاء النقدي التاريخي والفلسفي. وبذلك، ستُبدع ـ سوى المقاولات والقيم والمعايير الأوروبية ـ مقولات ومعايير وقيم أخرى في عالم جديد خاو من اليوتوبيا والهدم.

وإذا انتقلنا إلى موقف الشرق المسيحي من الاسلام، واجهتنا أصوات متباينة في أحكامها، فواحد مثل «سيبيوس» مثلاً، يقر ـ معتدلاً ـ بالأسس الابراهيمية للاسلام، ويذهب إلى حد الاعتراف ببعض من النبوة المحمدية، هذا من جهة، وفي المقابل تبرز آراء ومواقف فظَّة ومشوبة بالعصبية في العقيدة الإسلامية، فـ «أبو قرة» الذي كتب في منتصف القرن الثامن، ثم حنّا الدمشقي في القرن التاسع، يقارن الإسلام بالهرطقة و«الآريوسية» وأصل هذا المذهب، أنه ينكر وحدة جوهر الأقانيم الثلاثة، وينكر بالتالي ألوهية المسيح. وهكذا كان نشوء الكلام الاسلامي في الوسط السوري ـ بلاد ما بين النهرين ـ في جوٍّ من المشاحنات اللاهوتية مع السكان الأصليين. لكن الشرق المسيحي يعيش تحت وصاية دول متسامحة، ولكنها ليست غير مبالية، أي أنها مقترنة سابقاً بدين. إذن، العالم المسيحي حقيقة غريبة محض، وليس مجرد جماعة دينية شاءت أن تكون عالماً سياسياً، وكان لها ذلك إلى حدٍّ بعيد. ومن هنا خرجت أوروبا الحديثة.

ذلك كان موقف الشرق المسيحي؛ أما الفتح العربي في القرنين الثامن والعاشر، فقد اعتُبر شكلاً من أشكال الغزو البربري الفوضوي، واعتُبر ممارسة عدوانية عربية. من هذه الاعتبارات، انبثقت تصوُّرات الوعي الغربي القروسطي المنصهرة في أتون الانفعال والعداوة والحقد. لذا لم تتكوَّن صورة الاسلام االحقيقية، ولم تتكون الرؤية المتجانسة والمتحققة؛ وأقصى ما وصلت إليه اسبانيا: اكتشافها في محمّد شخص المسيح الدجال، لتعود عن هذا التفكير مع نهاية الوجود الاسلامي في اسبانيا. وكانت هناك رؤية فكرية تهيأت في القرن الثاني عشر؛ توسَّعت وتدفقت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، لتمتد حتى القرن الثامن عشر وحتى العصر الاستعماري؛ وهي تنطلق من عداء واسع للنبي الذي بـ «نبوءته الكاذبة»، قد أوقف تطور الانسانية باتجاه المسيحية... كما اعتُبر الاسلام في المفهوم المسيحي مخرباً وهادماً، يدعو العاطفة تحديداً، بدائياً، تبسيطياً. وسلوك النبي المسلم هو نقيض السلوك السوي القائم على قمع الغرائز، وهو شهواني مادي في مفهومه للجنة... ولذا تفوح منه روح الوثنية التي تصوِّر اللذات الحسية القادمة. واعتبر رجال القرون الوسطى أن العقيدة والمؤسسات الاجتماعية تفرز تلك الرؤيا للفسق الاسلامي: تعدد الزوجات، المرأة خادمة لا رفيقة؛ بينما الدين المسيحي على العكس من ذلك. كما زعموا أن الشذوذ الجنسي موصوف في القرآن بشكل يسمح به في الجنة. لذا قيل إن المجتمع الإسلامي لا يعتبر العفة من ضمن الفضائل العامة، كما اعتبر العنف من مكوِّنات الاسلام، وبذا قال «نورمان دانيال». وكان ثمة مؤلفون يعبرون عن رأيهم بعقلانية، وهم الذين أقاموا توازناً بين المسيحية ـ التي انتشرت بواسطة الاعتناق والتضحية المثالية للرسل ـ وبين الاسلام الذي قسَّم العالم إلى دار الاسلام ودار الحرب، مع كل الايديولوجيا وخرافة العنف المختزل اللذين يفرضهما هذا التمييز. ويستتبع ذلك الحديث عن قانون للقوة فرضه النبي، واضطهاد الكنيسة وتدنيس كنائس الله التي تحوَّلت إلى جوامع، أي إلى «معابد للشيطان». ويطلقون أخيراً، الفكرة القائلة: «إن الإسلام لا يقبل الخلاف العقلاني».

تلك كانت صورة الاسلام قديماً، فكيف تصوَّرت أوروبا الحديثة الإسلام؟

يقول المؤلف جعيِّط: في القرنين السادس عشر والسابع

عشر، لم يعد الوعي الديني يجادل الاسلام، لكنه بقي عاجزاً عن تجاوز جذوره العقائدية مستهدفاً حقيقة النبوة المحمدية. وأن الكنيسة والعلم السكولاستيكي المدرسي يجهلان الاسلام غالباً، هذا إذا كانا يعرفان المسلم أصلاً. وقد جسَّدت المسيحية ـ طوال العصر الحديث، وبكل قوة ـ في الغرب الاتجاه المعادي للاسلام. وبعد تحرُّر الفكرة العلمانية من الضغط المسيحي على التأمل العقلاني وعلى الممارسة السياسية انفتحت نظرة جديدة للكون، وقد تمكنت من رؤية الاسلام في العمق كجزء متمِّم وهام من الحياة الانسانية.

وفي عصر التنوير الأوروبي، برزت أسماء مثقفين فرنسيين تناولوا قضايا الاسلام، من خلال منظورات عصبية لا موضوعية، ومن هؤلاء **ڤولتير وڤولني**. أمّا ڤولتير في مرحلته الأولى، وكتابته عن «**محمد والتعصّب**»، كان حكمه على الاسلام عدائياً. وفي المرحلة الثانية، في حديثه حول «**محاولة عن العادات**» أصبحت اللهجة أكثر جدية وغموضاً، لكن الحكم عموماً بقي قاسياً. ومجمل تقييمه، أن الاسلام رمزٌ للتعصّب وللاانسانية، ولإرادة القوة؛ وأن النبي محمّد قد استفاد من بساطة من حوله وفرض رسالته بالقوة.

أما الفكرة العامة لدى الأوروبيين في القرن الثامن عشر حول الاسلام كمجتمع، فإنها تقول إن الاسلام مقترن بالضعف والانحطاط، وهو يُرى كضعفٍ **حضاري** وسياسي، وإن سبب الانحطاط هو ضعف الحكومات والمؤسسات السياسية، وضعف البنية الدينية.

وعندما يتوجه المؤلف نحو **ڤولني**، فإنه يصنّفه كأيديولوجي من الدرجة الأولى. في فترة نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، قام برحلة طويلة إلى الشرق عشية الثورة، وكتب عنها، «ووصف مصر وسورية»، ثم لينسج بعد ذلك كتابه «**الآثار**»، وفيه فكرة عن العنف في الاسلام، إذ ترد فيه عبارة: «يمكن لمحمد أن يكوِّن امبراطورية سياسية ودينية على حساب موسى والمسيح»، وفي مقطع آخر، يقول على لسان إمام عن قانون محمد: «إن الله جعل محمد وزيره على الأرض، وأعطاه العالم، ليُخضع بالسيف كل من رفض الاقتناع بقانونه»؛ ثم يدين هذا الرسول الذي لا يعظ إلاّ بالقتل والمذابح، ولكن لا بد من العلم أن ڤولني ليس مسيحياً، بل إنه معاد للكاثوليكية، ولكنه تعوزه الحجة والمعرفة العميقة بالاسلام؛ ولذا توكأ على المعطيات القروسطية البالية، والتي أصبحت تقليداً حيّاً وموروثاً ضاغطاً على كل الآفاق الفكرية. لذا يزعم ڤولني أن الاسلام هو منبع المبالغات والانحرافات في أنظمة الفكر. ومن هنا، كان طعنه في القرآن الكريم دستور الاسلام. ويزعم أيضاً أن القرآن يكرِّس الاستسلام التام لارادة النبي، والخضوع؛ وهذا هو الطغيان المطلق والاستبداد؛ وأن هدف النبي كان السيطرة لا التنوير؛ والحدس المركزي عند ڤولني نجده أيضاً عند مونتسكيو وڤولتير. وهو يتلخَّص في كون المؤسسات الاجتماعية والسياسية هي سبب انحطاط المجتمع الشرقي، أي أنها تنحدر من الدين الاسلامي الذي يحوي نتيجة الطغيان. ويمكن هنا، تقبُّل الحديث على المؤسسات، ولكن بفصل الدين عن الجذور التي ألصق بها المفكرون أولئك، ثمار الانحطاط المشرقية.

وبالإجمال، فقد ألصق المفكرون الأوروبيون فكرة العنف والطغيان بالشعوب الشرقية الاسلامية، فقالوا إنها «شعوب تنتمي أساساً إلى السيف»، بكل بنيتها التاريخية. ويقع المفكرون الأوروبيون جميعاً في خطأ تحليل الشخصية العربية، نظراً لتناولهم نماذج فردية، أو لانكفائهم نحو خلفيات فكرية لا موضوعية تحكم الهوى لا العقل. ويكوِّنون للطبع الاسلامي صورة مشوَّشة، سببها الجوهري، كما يزعمون، التأثير الأصلي للفكر الديني. أمّا الثغرة الكبيرة هنا، فتبرز من خلال المنهج الاثنولوجي الذي يكتفي بلمسات مؤثرة، وبأحكام تجريبية، وبعلم نفس كلاسيكي.

لكن من الانصاف القول، إن رحّالة مثل لامارتين، أدرك بعض الملامح الأساسية للنفس الاسلامية؛ فالتعقل الاسلامي فيه نوع من التسامي والحزن، ولامارتين ليس مسيحياً متزمتاً، ولكنه فكر حر ومنفتح. وإنه وإن أكد تفوّق المسيحية على الاسلام؛ ففي رؤيته لتاريخ الأديان، يعتبر أن الدين الاسلامي أكثر تطوّراً من المسيحية، وقد أتى في مرحلة لاحقة من تطوّر التوحيد، وهو أكثر تجريداً وعقلانية. إنه الألوهية العملية والتأملية.

ويدافع عن الاسلام في معرض رده على قول ڤولني «إن الاسلام مسيحية فاسدة»، بقوله: إن الاسلام «مسيحية مطهرة». ولكن صورة الشرق البهية تُغريه، لأن يرسم مشروعاً استعمارياً له وللمغرب أيضاً. وهو استعمار مباشر لا يمس الاسلام الديني، بل يكتفي بالسيطرة السياسية على المجتمع المدني. وتستيقظ لدى المثقفين الغربيين فكرة تربط عادة السقوط بالنفس العربية. إنها عودة الصور التاريخية القديمة، أو الشبح التاريخي العربي القديم، والخوف من الجنون العربي ومن «اللاعقلانية» العربية. وتعظُم هذه الفكرة في خلد المثقف الباريسي بصورة أشد من سواه، إذ تُستمد من واقعية تفوق مجتمعه لينصّب نفسه استاذاً متعالياً على كل العالم المتوسطي.

ومن المثقفين الغربيين ـ يذكر المؤلف ـ رينان، الذي يعتبره مؤرخاً ايديولوجياً، لم تتطور أفكاره عن الاسلام من خلال مهنته، ولكنها توضّحت وتنظّمت أكثر في محاضراته الشهيرة عن دور «دين الاسلام والعلم»، التي تناولت ابن رشد والابن رشدية. والناحية التي تهمه في الاسلام، هي تاريخ الفكر الانساني المعتبر كمحور للتاريخ عموماً؛ ورينان لم يترك نفسه يعيد ذلك التقليد المسيحي الطويل من تبخيس للخصم الاسلامي.

وعند فكر أوروبا والاسلام، لا بد من تذكّر المستشرقين. فقد كان وجود الاستشراق خلال قرن من الزمان (١٨٥٠ ـ ١٩٥٠) مشروطاً بعجز العالم الاسلامي عن معرفة ذاته. وكان في حد ذاته دليل وصاية فكرية وتقليلاً من شأن الشرق؛ ومع ذلك، بقي الاستشراق مصنعا كبيراً للفكر الغربي. ويمكن إلغاء وجهة النظر الاستشراقية بأن نضع أنفسنا بكل بساطة ضمن رؤية غربية على مستوى المنهج، بأن نواجهها بالدقة النسبية لمناهج العلوم الانسانية، وعلى مستوى الفكر العام الذي يحرّكها بأن نضع في المقدمة مفاهيم التعاطف والغيرية، ومفاهيم المنطق الخاص للثقافة. ونفند المحافظة السياسية التي لا تناقش بكل الترسانة الايديولوجية للتقدمية. مع ذلك، فإنها كانت وتبقى مجالاً أولياً لنشر وتوطين مناهج العلم الحديث في الشرق. ويعيد العالم الالماني ـ أكثر من غيره ـ للإسلام لونه الديني، فهو دين الخلاص موجه نحو الأعلى. وعلى مستوى التاريخ الملموس، فالعلاقات الاسلامية الجرمانية لم تتطوّر في العصور الوسطى بتأثير ما هو سياسي بحت، بل بتأثير الحضارة والنفس. وأن فيلسوفاً مثل **«هيغل»** يشير في مقدمة كتابه **«دروس فلسفة التاريخ»** إلى وضوح وبساطة وعمومية المبدأ الاسلامي، ومع ذلك تترافق ظاهرة التجريد مع الحماسة. فالتعصب الاسلامي ما هو إلاّ حماسة للمجرّد الذي «ينبغي أن يعتبر الملموس هداماً ومخرباً، ولكن ما هو ملموس عند المسلمين جدير أيضاً بكل نوع من التسامي، هذا التسامي موحّد مع كل فضائل كبر النفس والبسالة».

وفي مجال إعادة قراءة التاريخ العالمي، يقول جعيّط بتعددية الأقطاب العالمية، التي تتجمّع في محاور رئيسية ثلاثة: الاسلامي، الغربي، الصيني. ويمكن القول، إن عام (١٣٠٠) يمثل لحظة غلبة الاسلام على منافسيه. ومن الصحيح أيضاً، أنه بعد قرن من النهضة الأوروبية، وفي عام (١٦٠٠)، كان القسم الغالب من الانسانية ضمن دائرة المساحة الاسلامية، وأن المعمورة بدت وكأنها محاصرة من كل الجهات بالاسلام. إسلام يمثّل مكاناً مركزياً، لأنه الوحيد من بين أقرانه العالميين، وعنده علاقات مستمرة مع كل منهم. والغرب لا يمكن أن يكون

وما زال يترك آثاراً إيجابية وسلبية، أحد أهم تجلياته اللاإنسانية هو إفرازه للأفكار العنصرية التي على أساسها ارتكز الفكر الاستعماري الغربي. وبهذا، فإن الصراع أخذ يرتدي طابعاً عنصرياً، بين ما أسماه الفكر الاستشراقي المركزي الاوروبي بـ «رقي الغربي» وبـ «دونية الشرقي».

في كل المراحل، كان هناك خيط واحد يجمع بين العصبويين الغربيين والشرقيين، هو الانطوائية الاقليمية والدينية والقومية ومحاولة إقحام نمط تفكير كل منهم على الآخر؛ ورافق هذه المراحل خطٌ آخر - وإن كان ضعيفاً - هو الانفتاح الانساني والخلاّق؛ وأخذ كل ما هو إيجابي من الحضارات الأخرى لإغناء وتطوير معالم الشخصية الثقافية القومية لهذه الأمة أو تلك.

ولم تشذ روسيا القيصرية عن هذا الخط العام. فلقد نشأت وتطورت في هذا المناخ الثقافي الدولي، ومرّت بمراحل متنوعة، كل مرحلة كانت تتميّز بخصائص معيّنة يحددها المناخ السياسي والفكري والعلمي الذي كان يطبع هذا العصر أو ذاك. ومع نشوء حركة الاستشراق بها التي تميّزت بخصائص كثيرة عن المدرسة الاستشراقية الاوروبية القريبة، تكون العلاقات الثقافية الروسية - العربية (الشرقية) قد دخلت مرحلة جديدة، كان لها دور هام في تكوين الشخصية الثقافية الروسية.

تخلّل القرون الأولى من بداية تكوُّن الشخصية القومية الروسية جداً من المشاكل الثقافية والدينية. فلقد كانت روسيا بين القرن التاسع والقرن الثامن عشر تبحث عن شخصيتها الثقافية القومية الخاصة بها. فانفتحت روسيا الكيفية منذ البداية على أوروبا الغربية وبيزنطة والعالم الاسلامي معاً. هذا وإن حاولت روسيا الكيفية في عام (٦٤٣) أن تقف مع امبراطورية الخز ضد الخليفة الاسلامي. إلاّ أنها وجدت لغة مشتركة في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل النصف الأول من القرن العاشر مع الخلفاء، من جرّاء وقوفهم ضد الامبراطورية البيزنطية. ولقد أشار بهذا الصدد المؤرخ الروسي **سافاروف**: «ليس من المستغرب القول بأن هجوم الروس على بيزنطة مهّد السبيل لعلاقة طيّبة مع العرب، لأنهم كانوا ينوون في تلك الفترة شن هجوم عسكري واسع على الامبراطورية»(١).

بيد أن تطوُّر العلاقات الروسية الاوروبية حال دون توجُّه الروس نحو الخلافة العربية، فلقد بدأوا يتجهون نحو اليونان وبيزنطة. وتعاون الروس والبلغار والأرمن في عام (٩٥٤) مع حكام القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية، ضد الأمير السوري سيف الدولة. وتبع ذلك مشاركة روسيا وإن كانت طفيفة في الحملات الصليبية ضد الشرق الاسلامي(٢).

وبهذا بدأت روسيا تضع قدمها بالتدريج في أوروبا الغربية، مبتعدة عن التأثير بالحضارة الشرقية -

الاسلامية . بيد أنها لم تحسم أمرها نهائياً حتى أواخر القرن التاسع عشر، وهذا ما يؤكد عليه المؤرخ الروسي **شمورلا** « فإلى جانب التأثير الحضاري الاوروبي الغربي على روسيا ، كان هناك خطٌّ موازٍ ثقافياً ، ترك آثاره بدوره عليها ، وهو الخط الممثَّل بالتأثير التاريخي الثقافي الآسيوي . فرغم أن هذين الخطين كانا كل منهما ينصب العداء للآخر ، فإن روسيا كانت تتأرجح بينهما وتتأثر سلباً وإيجاباً بهما »[٣] .

وهذه المسألة ما زالت تثير نقاشاً واسعاً بين المؤرخين والمفكرين السوفيات . فالشاعر الكازاخي المعروف **سليمانوف** يؤكد على الدور المميَّز الذي لعبته الآداب الاسيوية الشرقية على تكوُّن الشخصية الثقافية الروسية ، رغم رفض أمرائها القدامى لنمط الحياة الشرقية[٤] ، ولا يوافقه الرأي الناقد السوفياتي المشهور أيضاً **ليخاتشوف**، الذي يعتبر بأن الثقافة الآسيوية الشرقية لم تترك أيّ أثر ملحوظ على الثقافة الروسية . فلقد كانت أنظارها متجهة نحو الثقافة الاوروبية الغربية[٥] .

إن الانحياز لتأثير هذه الثقافة أو تلك، له وجود في ذهن انتلجنسيا كل شعب من الشعوب ، بما فيه شعوبنا العربية ، وإن أخذ بعض الخصائص المميزة في كل بلد . إن أية وجهة نظر مغرقة في عصبويتها لهذه الثقافة أو تلك، تعكس التناول غير الموضوعي لتاريخ الثقافات في العالم . فلكي يؤكد أي شعب شخصيته الثقافية ، عليه أن يعكس الحقائق التاريخية كما هي ويعطيها حجمها الطبيعي ، فلا يختلف مثقفان متنوران في عصرنا على أنه لا يوجد لا في التاريخ القديم للشعوب ولا في التاريخ المعاصر ثقافة خاصة فقط بهذا الشعب أو ذاك . فالتاريخ الانساني شهد ويشهد تفاعلاً دائماً بين الثقافات المتنوعة . فإذا أفرزت هذه المرحلة التاريخية أو تلك هذه الثقافة المعينة إلى الواجهة ، فهذا يعني أن هناك عوامل تاريخية وقومية خاصة أدت إلى الوصول إلى نقطة القمة . فمنطق حركة تطور الحضارات يؤدي بهذه « الحضارة القمة » فيما بعد ، إلى الخمول والهبوط لتبرز مكانها حضارة أخرى تتأثر بما قبلها وتتقدم بحياة البشر للأمام . وبهذه الفكرة لا « تُكتشف أميركا » كما يقول المثل ، فتلك حقيقة علمية مكتوبة . غير أن الذي يحول دون تفاعل حضاري خلاَّق بين الثقافات هم أولئك الذين تحرّكهم النزعة الانطوائية المصلحية ذات البعد البراغماتي ، إذا كانوا ممثلين في هرم أيّ سلطة ، وأولئك الآخرين الذين ينتمون إلى شعوب وأمم ضعيفة ،الذين يجدون متنفساً لعقدة النقص الحضارية عندهم بشحن عقلية شعوبهم ضد ثقافة الحضارة الأرقى بشقيها الايجابي الانساني والسلبي الانعزالي .

فالذي يهمنا ، نحن العرب ، هو كشف ذلك الجانب الانساني المشع في حضارتنا ، والتعرُّف على ما هو انساني في الحضارات الأخرى ، وكشف الجوانب السلبية الأخرى التي أدَّت إلى تكريس العديد من الستريوتيبات عن نمط حياة وسلوكية العربي في التاريخ والحاضر . ولكون الحضارة العربية ـ الاسلامية شكَّلت إحدى النقاط المضيئة في تاريخ شعوبنا ، فهي ملك في أبعادها الايجابية الانسانية لكل الشعوب والأمم ، لأنها دخلت في التاريخ